أثر الخصومة حول أبي تمّام في اختياره شعرَ الحماسة

حسين الزعبي، سامر الكاطع*

قسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة دمشق

*طالب دراسات عليا (دكتوراه)

الملخص

تكشف هذه الدراسة عن أثر الخصومة التي قامت حول مذهب أبي تمام الشعري، في اختياره المسمّى (ديوان الحماسة) الذي كان أول اختيار يقوم على التصنيف والتبويب، ويختصُّ بشعر المغمورين والمقلّين.

وتبيّن من خلال البحث أن اختيار أبي تمام لديوان الحماسة جاء ردّاً على خصومه من النقاد اللغويين المتعصّبين للقديم، الذين اتهموه بسرقة معاني مَن سبقوه، فجمع لهم في ديوان الحماسة شعرَ الأوّلين كي يقارنوا بين هذا الشعر المختار وبين شعره، وليعلموا بعد ذلك أن شعره بريء مما يدّعون.

وخلصت الدراسة إلى أن أبا تمام أثبت عن طريق الحماسة قدرةً فائقة على الانتخاب، وانتزع من خلالها اعتراف خصومه بفضله وسبقه، حتى وقع الإجماع من النقاد -على حد قول المرزوقي- على أنه لم يتفق في اختيار المقطّعات أنقى مما جمعه أبو تمام.

الكلمات المفتاحية: الحماسة – الخصومة.

شغل أبو تمّام الأدباءَ واللقادَ في عصره، فنشأت خصومةٌ عنيفة حول مذهبه الشعري، واستمرّت هذه الخصومة فترة طويلة بعده. وقد افترق هؤلاء في تلقّيهم لشعره إلى فريقين، أحدهما حمل لواء المحافظة، وهم: "الكتّاب والأعراب والشعراء المطبوعون وأهل البلاغة". (الآمدي، 1972) الذين كانوا يقيسون البلاغة "بالمقاييس العربية الخالصة التي لا يشوبها أيّ مقياس أجنبي". (ضيف، 1965) ويمكننا أن نعدّ من أنصار هذا الفريق: "ابن الأعرابي، ودعبل الخزاعي، وإسحاق بن إبراهيم الموصلي، وإبراهيم بن المدبّر، وأبو حاتم السجستاني". (الأعرجي، 1978)

أما الفريق الثاني فحمل لواءَ التجديد، وهم: "أهل المعاني والشعراء وأصحاب الصنعة، ومن يميل إلى التدقيق وفلسفيّ الكلام". (الآمدي، 1972) الذين كانوا "يقيسون البلاغة بالمقاييس اليونانية الخالصة". (ضيف، 1965) ويمكننا أن نعدّ من هؤلاء: "الحسن بن وهب، والحسن بن رجاء، وعمارة بن عقيل، ومحمد بن عبد الملك الزيّات، وإبراهيم بن العباس الصّولي، وعلي بن الجهم، وأبو بكر الصّولي".(الأعرجي، 1978)

وقد استطاع أبو تمّام بمنحاه الجديد أن يستميل قلوب هؤلاء، ويجعلهم يقفون مدافعين بقوة عنه، وعلى رأسهم محمد بن يحيى الصّولي، الذي كان شديد التعصّب لأبي تمّام، فقد مال إليه في كتابه (أخبار أبي تمّام) ميلاً شديداً، وفضّله على كل سالف وخالف.

والحق أن أبا تمام كان ظاهرة مثيرة للجدل والخصومة والاختلاف، "فالناس في أبي تمام في طرفي نقيض، متعصّبٌ له يعطيه أكثر من حقّه، ويتجاوز في الوصف قدره، ويرى أن شعره فوق كل شعر، أو منحرفٌ له معاند، فهو ينفي عنه حسنه، ويعيب مختاره، ويستقبح المعاني الظريفة التي سبق إليها وتفرّد بها". (المسعودي، 2005)

كان أبو تمام كثير المطالعة والدرس، عالماً بالشعر، "مشغوفاً به، مشغولاً مدّة عمره بتخيّره ودراسته".(الآمدي، 1972) حتى اعترف له العلماء بغزارة علمه وإحاطته بثقافات عصره، يقول محمد بن يزيد المبرّد: "ما سمعتُ الحسن بن رجاء ذكرَ قطُّ أبا تمّام إلا قال: ذاك أبو التمام، وما رأيتُ أعلمَ بكلّ شيءٍ منه، ولا أحداً أعلم بجيّد الشّعر، قديمه وحديثه من أبي تمام". (الصُّولي، 1980)

وهذا الانكباب على دراسة الشعر لم يقتصر أثره على شعره، وإنما أثمر مؤلفاتٍ واختياراتٍ تنمُّ عن ذوق رفيع، ومعرفة واسعة بأخبار العرب وتاريخهم، وقد ذكر له الآمدي ستة مؤلفات في الاختيارات الشعرية، وأشهرها ديوان الحماسة، وقال: "فهذه الاختيارات تدل على عنايته بالشعر، وأنه اشتغل به وجعله وكده، واقتصر من كل الآداب والعلوم عليه، وأنه ما فاته كثير من شعر جاهلي ولا إسلامي ولا محدث إلا قرأه وطالع فيه". (الآمدي، 1972)

لكن الحماسة تظلُّ أشهر اختياراته، بل هي أشهر كتب الاختيارات جميعاً. وقد أشار المرزوقي إلى استحسان النقاد لحماسة أبي تمام فقال: "وقضيت العجب كيف وقع الإجماع من النقاد على أنه لم يتفق في اختيار المقطّعات أنقى مما جمعه". (المرزوقي، 1991)

وقد يرجع السبب في ذلك إلى أن الحماسة أُلفتْ على نحوٍ لم يُعهد في المختارات من قبل، ذلك أن الاختيارات الشعرية السابقة لها، لم تكن إلا أشتاتاً مختلطة من جياد القصائد وروائع المقطّعات، لا تقوم على وحدةٍ تُقصد ولا نسقٍ يُراد، إلى أن جاء أبو تمام فوضع ديوان الحماسة، فكان أول اختيار يقوم على التصنيف والتبويب، ويحتوي على مقطّعات قصيرة لا قصائد طوالاً، ويختصُّ بشعر المغمورين والمقلّين.

فالحماسة صنّفت الشعر المختار وجعلته في عشرة أنواع، وقد سمّى كلَّ نوع باباً، والأبواب هي: الحماسة، والمراثي، والأدب، والنسيب، والهجاء، والأضياف، والمديح، والسّير والنعاس، والمُلَح، ومذمّة النساء.

وقد أنجز أبو تمام مهمّته في الحماسة، دون أن يُفصح عن دوافعه، في عملٍ ليس من اختصاصه، ولم يُكلّفه فيه أحد من الخاصة. إنه بعمله ذاك، قد فتح باباً واسعاً للتأمّل والجدل، تماماً كما كان الحال مع شعره المُشكِل الذي استدعى تأويلاً وجدلاً.

يبدو أن معركة الخصومة الطاحنة التي أثيرت حول أبي تمام كانت تعيش وتتفاعل في وجدانه، لكنه لم يشأ أن يدخل أرضها المكشوفة مباشرة، وعلى نحو سافر، بل جعل مساهمته فيها محصورة بما كان يقوله من أبياتٍ تصف طبيعة هذا الشعر، وطريقته في نظمه، ويتعرض لمن يزاحمه ويخاصمه فيه من جهة، وبالمختارات الشعرية التي برع في جمعها وتبويبها، كما هو شأنه في كتاب الحماسة من جهة أخرى.

والأمثلة على ذلك كثيرة، ففي مدحه مالك بن طوق، وصف قصيدته بأنها ابنة الفكر المهذّب، وبأنها كثيرة الأسلاب: (التبريزي، 1964)

خُذها ابنةَ الفكر المهذَّب في الدّجى والليلُ أسْوَدُ رُقعةِ الجِلبابِ
بِكراً ثُوَرِّثُ في الحياة، وتنتشي في السِّلْم، وهي كثيرةُ الأسلابِ

وفي مدحه محمد بن عبد الملك الزيات، جعلها مغرّبة في كل فهم غريب، كما باعد بينها وبين استقائها من الكتب تعزيزاً لفكرة جدّتها وغرابة معانيها: (التبريزي، 1964)

خذها مغرّبةً في الأرض أنسةً بكلّ فهمٍ غريبٍ حين تغتربُ
لا يَستقي من جَفير الكُتب زولتُها ولم تزلْ تستقي من بحرها الكتبُ

فهو يؤكد في المثالين السابقين ابتكاره لمعاني شعره، وابتعاده عن التقليد أو استقاء الأفكار من الكتب التي دوّنها غيره، بل على العكس من ذلك، يرى أن غيره يستقي من معانيه لملء كتبه، لذلك رأى شعره غرضةً للاستلاب.

ولا يخفى ما في الأبيات من ثقة زائدة في النفس، كانت أساس ثباته وصموده أمام كل الرياح العاتية التي هبّت في وجهه من جهات كثيرة، ومن توكيد الثقة هذه جاء اختياره أشعار الحماسة، بل ربّما كان تبويب الحماسة على النحو الذي ورد فيه تبويباً منبثقاً من داخل الشاعر، ومراعياً أهمية الموضوعات وترتيبها في فكره ووجدانه. لأجل ذلك ابتدأ اختياره بموضوع الحماسة.

والحماسة في الأصل تعني التشدّد، "وكانت العرب تسمّي قريشاً خُمساً لتشدّدهم في أحوالهم ديناً ودنيا".(التبريزي، 1296هـ) ثم كثر استعمالها واتّسع معناها حتى صارت تطلق على الشجاعة، لما فيها من معنى الشدة على النفس والقِرْن، وعلى هذا فإن أبا تمام حين اختار الحماسة لم ينظر إلى معناها الضيّق المحسوس، من الكرّ والفرّ، والإيقاع بالأقران، والتصدّي للخصوم في ساحات الحرب، بل نظر إلى معناها العام، وإلى بعض ما يتفرّع عنها من خصال، كالنخوة والصبر على الأرزاء والمحن، والاعتزاز بالنفس، واكتساب القوة الشخصية لمواجهة مشكلات الحياة وما أكثرها!

إن ثمّة دوافع خاصة بأبي تمام حدت به إلى هذه الاختيارات الشعرية، فقد كان يواجه تحدّياً شخصياً كبيراً، اقتضى الحاجة إلى(حماسة)بالغة، وشجاعة نادرة، للمضي قُدماً في مشروعه الفنّي التجديدي، وتفعيل مذهبه الشعري، فكانت الحماسة بما أحيط بها من أجواء غير عادية، واحدة من تلك الفرص التي كان ينتظرها للردّ على منتقديه، وبخاصة رواة الشعر، الذين كانوا يعرفون تفسير الشعر القديم، لا فنيّة الشعر الجديد! يقول إبراهيم السامرائي: "لم يكن لعلماء اللغة وعلماء النحو بَصَرٌ بالشعر ونقده، ولكنهم باشروا هذا الفن، فقصروا همّهم على النظر في الاستعمالات اللغوية، واتصراف اللفظ إلى معنى دون غيره، ولم يكن القول بفكرة تبدّل المعاني والدلالات، وتطوّر ذلك تبعاً للزمان والمكان، مفهوماً عندهم. على أن هؤلاء الشعراء المحدثين، ما كانوا ليأبهوا بأقوال هؤلاء". (السامرائي، 1980)

كان أبو تمام في معركة فاصلة مع نقاد عصره أصحاب الذوق العتيق، الذين لا يعرفون، ولا يريدون أن يعرفوا إلا طريقة واحدة في الشعر، هي ما أسموه شعر الطبع، الذي ينثال على صاحبه انثيالاً، أو شعر الوضوح الذي "يصل معناه إلى قلبك قبل أن تصل ألفاظه إلى سمعك".(الأصبهاني، 1287هـ) وشعر أبي تمام لم يكن من هذا ولا ذاك.

وقصة أبي تمام مع أبي العميثل وأبي سعيد الضرير ـ قيّما خزانة الكتب ـ على باب عبدالله بن طاهر مشهورة ، فلما سمعا مطلع قصيدة أبي تمام:

هنَّ عَوادي يُوسفٍ، وصواحبُهْ فَعَزماً، فقَدْماً أدرك اللّجحَ طالبُه

رَمَيا بها أرضاً، وحين راجعهما أبو تمام فيها، صاح أبو سعيد في وجهه: "لقد شددتَ على نفسك، فلماذا تقول ما لا يُفهم؟!" وقد احتاج أبو تمام إلى قوة النفس، وإلى الإيمان الشديد بما يصنع، حتى يردّ عليه بمثل أسلوبه قائلاً: "وأنت لم لا تفهم ما يُقال!". (المرزباني، 1965)

أبو العميثل وأبو سعيد اثنان من كثير كانوا يقفون من جديد هذا الشاعر موقف الجفاء بل العداء. ومن هؤلاء أبو حاتم السجستاني الذي كان يُسأل عن معاني شعر أبي تمام فلا يعرفها، ثم يقول: "ما أشبه شعرَ هذا الرجل إلا بثياب مُصقلاتٍ خُلقان، لها روعة وليس لها مُفتّش". وابن الأعرابي الذي كان يقول عن شعره: "إنْ كان هذا شعراً، فما قالته العرب باطل!".(الصّولي، 1980)

فهؤلاء العلماء الذين درسوا شعر الأقدمين، هم الذين عابوا شعر المحدثين، والصّولي يحاول أن يجد تفسيراً مقنعاً لموقف النقاد واللغويين من شعر أبي تمام ، فيضع يده على رؤية نقدية صحيحة، وهي: "أن أشعار الأوائل قد ذُللت لهم،

وكثُرت لها روايتهم، ووجدوا أئمة قد ماشُوها[1] لهم، وراضوا معانيها، فهم يقرؤونها سالكين سبيل غيرهم في تفاسيرها، واستجادة جيدها وعيب رديّها".(الصّولي، 1980)

ثم لا يلبث أن يضيف إلى ذلك سبباً آخر هو جهلهم معاني شعر المحدثين، فيقول: "وفرّ العالم منهم من قوله إذا سُئل: لا أُحسن، إلى الطعن وخاصة على أبي تمام، لأنه أقربهم عهداً، وأصعبهم شعراً، وكيف لا يفرّ إلى هذا من يقول: اقرؤوا عليّ شعر الأوائل، حتى إذا سُئل عن شيء من أشعار هؤلاء جهله، وإلى أي شيء يلجأ إلّا إلى الطعن على ما لم يعرفه، ولو أنصف لتعلّم هذا من أهله".(الصّولي، 1980)

أمّا على مستوى المتلقّين لشعر أبي تمام من غير طبقة النقّاد أصحاب الذوق القديم، فقد استطاع أن يُحقّق نجاحات كثيرة بين الناس على اختلاف طبقاتهم، ذلك أنهم وجدوا فيه تمثيلاً لشخصية عصرهم المتحضّر والمثقف، فشعره يُغذّي الذات التي لم تعد تقنع بالعابر البسيط، وإنما أصبحت ـ بعد انفتاحها على الثقافات والحضارات الأخرى ـ تتوّاقة إلى تحفيز الفكر والانفعال والخيال معاً، وهذا ما كان شعر أبي تمام يوفّره لها.

ويؤيّد هذا ما قاله أبو الفرج الأصفهاني عن تفضيل الجمع الغفير من الناس لشعره، قال: "وقد فضّل أبو تمام من الرؤساء والكبراء والشّعراء مَن لا يشقّ الطاعنون عليه غباره، ولا يُدركون ـ وإن جدّوا ـ آثاره. وما رأى الناس بعده إلى حيث انتهوا له في جيّده نظيراً ولا شكلاً".(الأصفهاني، 1961)

وهذا يوحي أن كثرة الطالبين لشعره من الخلفاء والأمراء والأعيان والقوّاد، أفقرت أولئك الشعراء في زمنه فلم يعد أحدٌ يطلبهم، لقد استغنى بشعره عن أشعارهم جميعاً، حتى قيل: "ما كان أحد من الشعراء يقدر أن يأخذ درهماً بالشعر في حياته". (الأصفهاني، 1961)

---

[1] ماشُوا الأرض ميشةً: مرُّوا بها.

ويبدو أن أبا تمام لم يكن يقنع بما وصل إليه شعره من منزلة عند الخاصّة والعامّة، وكان يُلحّ عليه شعور بضرورة إقناع هؤلاء النّقاد بمذهبه الشعري، أراد أن ينتزع منهم اعترافاً بأهليته وفنه، لذلك سعى بكل وسيلة ممكنة كي يصل إلى هدفه، وما شعرُ الحماسة إلا وسيلة من هذه الوسائل التي قوّى بها عزيمته وتصميمه.

ولمّا كان خصوم أبي تمام من النقّاد اللغويين يُنفّرون الناس من الإقبال على شعره، كما جاء في الوساطة: "فإذا سمعتَ قول أبي تمام، فاستَذْ مسامعك، واستَغشِ ثيابك، وإيّاكَ والإصغاءَ إليه، واحذرِ الالتفاتَ نحوه، فإنه ممّا يُصدئ القلب ويعميه، ويطمس البصيرة، ويكدّ القريحة".(الجرجاني، 2006) فإنه قدّم لهم ما يصف موقفهم وموقف الآخرين منه، عن طريق الشعر القديم الذي يثقون به، بدلاً من تقديمه بشعره الذي ينفّرون منه، وبذلك التفّ أبو تمام على خصومه، وأتاهم من حيثُ لم يحتسبوا، وضَمِنَ أنّ رسالته الصامتة قد وصلت إليهم وأدركوا فحواها!

وقد يكون ابتداؤه الحماسة بأبيات قُريط بن أنيف التالية صدىً لمثل هذا الموقف الداخلي في نفسه، قال قُريط: (المرزوقي، 1991)

لو كنتُ من مازنٍ، لم تَستبحْ إبلي بنو اللّقيطةِ من ذُهلِ بنِ شَيبانا
قومٌ إذا الشرُّ أبدى ناجذيه لهمْ طاروا إليهِ زُرافاتٍ ووحدانا
لكنّ قومي، وإنْ كانوا ذوي عددٍ، ليسوا من الشرّ في شيء وإنْ هانا
يجزونَ من ظُلمِ أهلِ الظُّلمِ مغفرةً ومن إساءةِ أهلِ السُّوء إحسانا
كأنّ ربّكَ لمْ يخلقْ لِخشيتهِ سواهم من جميع النّاس إنسانا

فالمقابلة بين القوة والضعف كما تشير إليها الأبيات ليست خاصة بأهل قريط، وإنما هي موازنة إنسانية عامة تتجاوز تجربة الفرد إلى الجماعة، وتتخطّى الزمان والمكان، لهذا فإن أبا تمام وجد نفسه في هذه الأبيات: فهو إمّا أن يكون كأهل قريط متسامحاً يجزي ظالميه مغفرةً، والمسيئين إليه إحساناً، فيبدو في عيونهم ضعيفاً

يُغريهم ضعفه بالتمادي في ظلمه والإساءة إليه، وإمّا أن يكون كواحد من فرسان مازنٍ، الذين كانوا يطيرون إلى الشر زرافاتٍ ووحداناً، قهراً له وإبعاداً لأذاه.

وجدَ أبو تمام نفسه في جوٍّ مماثل لما كان عليه قريط، وهو جوٌّ مشحونٌ بالعداوة، يتطلّب منه موقفاً عملياً. لعل إعجابه بفحوى الأبيات، وجعلها بدايةً للحماسة، يؤكّد أن موقف القوة شدّه إليه، فغدا عازماً على أن يُقابل الشرّ بالشرّ، لكونه السلاح الأمضى والأجدى.

وقد وردت في الحماسة مقطوعات أخرى، تمجّد القوة التي تأتي في زمانها ومكانها الملائمين، فهذا الأخنس بن شهاب مثلاً يصف قومه بما يتعاكس وقول قريط السابق، يقول: (المرزوقي، 1991)

فللّه قومٌ مثلُ قومي عصابةً إذا حَفَلتْ عند الملوك العصائبُ
أرى كلّ قومٍ قاربوا قيدَ فحلهمْ ونحن خَلعنا قيدَه فهو ساربُ

فالأخنس خلافاً لقريط يُعجب بقومه، في قوّتهم وعزّتهم وفخارهم في مجالس الملوك، كما يُعجب بهيبتهم في نفوس سواهم، إذ لا يتجاسر أحد على التعرض لهم. فإذا كان الآخرون يُقيّدون فحول إبلهم خوفاً من أن تسرب في مراعي الآخرين، فإن فحول قومه مطلقة القيود، تتجوّل فيما طاب لها من الحقول، لأنها محميةٌ بمهابة أصحابها.

هناك إشارات كثيرة توحي أن أبا تمام اهتمّ بمواقف القدرة والتحدي وإنصاف الذات، وهو يختار شعر الحماسة، وأهم تلك الإشارات تركيزه في بداية الحماسة على الشّعر المحتفي بتلك المواقف، فقد أتبع قصيدة قريط بن أنيف السابقة، بأخرى لشهل بن شيبان الزماني، التي تُركّز على أن سلاح الشرّ في وجوه الأشرار يسير بصاحبه إلى النجاة والأمان: (المرزوقي، 1991)

صفحنا عن بني ذُهلٍ وقلنا: القومُ إخوان
عسى الأيام أن يرجعـ ن قوماً كالذي كانوا
فلمّا صرّح الشرُّ فأمسى، وهو عُريان
ولم يبقَ سوى العدوا ن، دِنّاهم كما دانوا
وبعضُ الحِلمِ عند الجهـ ل، للذلّةِ إذعانُ
وفي الشرّ نجاةٌ حيـ ن، لا يُنجيك إحسانُ

فالمعاني العامة في هذه المقطوعة والمقطوعة السابقة عليها متقاربة، لأنها في مجال الموازنة نفسها بين سلوك القوة وسلوك الضعف، حتى لو أعطي السلوك الأخير صفة أخرى كالتّسامح أو الرّحمة. قد يكون أبو تمام أبدى جانب الصّفح مراراً علّه يردّ خصومه إلى الحق والعدل، ولكن حين لم ينفع هذا الجانب اللّين دُفع إلى أن يقلب لهم ظهر المِجنّ، وإلى أن يُبدي جانب الشر ـ كما فعل أهل الشيباني في الأبيات: ضرب فأوجع، وطعن فأدمى، وبذلك صدق عليه فحوى البيتين الأخيرين: بعض الحلم مع الجهل ذلّة وإذعان، وفي الشرّ نجاة حين لا ينجي الإحسان.

من الملاحظ حقاً أن المقاربة بين السلوكين المتناقضين السابقين، تسيطر على أبي تمام في بداية شعر الحماسة: فهو لا يكتفي بالمقطوعتين السابقتين، وإنما يردفهما بأبيات في معناهما من المقطوعة الثالثة لأبي الغول الطُّهَوي، الذي يمدح فوارس صدّقوا ظنونه في شجاعتهم لأنهم كما قال: (المرزوقي، 1991)

ولا يَجزون من حسَنٍ بسيّءِ ولا يجزون من غِلَظٍ بلِينِ
فنكّبَ عنهمُ ذرءَ الأعادي وداوَوْا بالجنون من الجنون

فالغلظة لا تقابل باللين ولكن بما يفوقها غلظة وخشونة، كما أن الجنون لا يُداوى إلا بالجنون، هذا هو منطق هؤلاء الفوارس الذين تنكّبوا درء الأعادي

وشرورهم، إن هذه التجارب الثلاث تتماثل وتجربة أبي تمام مع خصومه، فالشرُّ والجنون منهم لا يردعه إلا شرٌّ وجنونٌ منه.

والشعراء الثلاثة السابقون كسروا من جانب آخر قاعدة عامة، حين صيّروا كلاً من الشرّ والجنون سلوكاً جميلاً، بل نافعاً، عندما استُخدم في الحالات التي استدعته. وكسر العادة المألوفة هو سلوك أبي تمام في شعره، فهو نزّاعٌ إلى مثل هذا التجاوز والتخطي.

إن المعركة الصامتة التي أثارها أبو تمام (من خلال شعره واختياراته) قد وصل أوارها لأعدائه، ولمّا لم يستطيعوا التشكيك في الحماسة، ولا في الشعر المروي فيها، عمدوا إلى أن يوازنوا بين هذا الشعر المختار وشعر أبي تمام نفسه، ويمكن حصر قواعد تلك الموازنة في قاعدتين اثنتين:

أولاهما: إن شعر الحماسة كان مرجعاً اعتمده أبو تمام في سرقة المعاني، جاء في الموشّح نصٌّ منسوبٌ لابن المعتز يقول فيه: "ولمّا نظرتُ في الكتاب الذي ألّفه في اختيار الأشعار، وجدتُه قد طوى أكثر إحسان الشعراء، وإنما سرق بعض ذلك، فطوى ذكره، وجعل بعضه عدّة يرجع إليها في وقت حاجته، ورجاء أن يترك أكثر أهل المذاكرة أصول أشعارهم على وجوهها ويقنعوا باختياره، فتغبى عليهم سرقاته".(المرزباني، 1965)

فابن المعتز في هذا القول المنسوب إليه، شوّه فضل أبي تمام في الحماسة، حين اتّهمه بطيّ بعض محاسن الشعراء، ليكون الشعر المطوي ذخراً لسرقاته، واتهمه في أخلاقه أيضاً، حين جعل ذلك العمل منه عن قصد ونيّة مبيّتة، كي يخدع الناس، فيلهيهم بما اختار عمّا طوى.

وقد نحا الآمدي هذا النحو، فحين عدّد كتب الاختيارات لأبي تمام، ربط ذلك بكثرة سرقاته منها، قائلاً: "إن الذي خفي من سرقاته أكثر مما ظهر منها، على كثرتها".(الآمدي، 1972)

وقد ردّ الدكتور محمد مندور على هذا الجانب من التهم التي وجّهها النقاد لأبي تمام فقال: "والذي نظنّه هو أن دراسة السرقات دراسة منهجيّة لم تظهر إلّا عندما ظهر أبو تمام، وذلك لأمرين: قيام خصومة عنيفة حول هذا الشاعر، ثم لأنه عندما قال أصحاب أبي تمام إن شاعرهم قد اخترع مذهباً جديداً، وأصبح إماماً فيه، لم يجد خصوم هذا المذهب سبيلاً إلى ردّ ذلك الادّعاء خيراً من أن يبحثوا للشاعر عن سرقاته، ليدلّوا على أنه لم يُجدّد شيئاً، وإنما أخذ عن السابقين، ثم بالغ وأفرط". (مندور، 2007)

ولنا أن نتساءل إذا كان أبو تمام ينوي سرقة الشعراء المتقدمين عليه، فلماذا نشر كل ما عرفه من أشعارهم في هذه المختارات الكثيرة التي سردها الآمدي؟! إن حرصه على إذاعة ذلك الشعر دلالة واضحة على نيّته وضعه أمام الناس عامّة، والنقاد اللغويين خاصّة، كي يقارنوا بالعدل بين هذا الشعر المختار وبين شعره، وليحكموا بعد ذلك على أن شعره بريء مما يدّعون.

لعل الجوّ الذي أحاط بالحماسة يؤيّد ما ذهبنا إليه، فقد جاء أن هذه المختارات اختيرت بعد تهمة صريحة، وجّهها إليه كلٌّ من أبي العميثل وأبي سعيد الضّرير، حينما نظرا في قصيدته السابقة الذكر، في عبد الله بن طاهر، فلم يجدا فيها حسب أقوال خصوم أبي تمام شعراً جميلاً سوى بيتين مسروقين هما: (التبريزي، 1964).

وزكبٍ كأطرافِ الأسنّة، عرّسوا على مِثلها، والليلُ تسطو غياهبُهْ
لأمرٍ عليهم أنْ تتمّ صُدورُه وليسَ عليهم أنْ تتمّ عواقبُهْ

فأبو تمام الذي ألحّ على جدّة معانيه، إذا كانت معاني غيره مُلبسة تشقى بها الأسماع:

وجديدة المعنى إذا معنى التي تشقى بها الأسماعُ كان لَبيسا

وعلى عذرية شعره:

إليكَ بها عذراء زُفّتْ، كأنّها عَروسٌ عليها حليُها يتكسّرُ

وعلى أن هذا الشعر مبرأ من السّرق، ومكرّم عن المعنى المعاد: (التبريزي، 1964)

إليكَ بعثتُ أبكارَ المعاني يليها سائقٌ عَجِلٌ وحادي
منزّهةً عن السّرَقِ المُوَزّى مُكرّمةً عن المعنى المُعادِ

أبو تمام هذا، سائقُ الشعر وحاديه، يجب أن يكون قد تأدّى كثيراً من الموقف الباغي الذي وقفه الرجلان منه، لذلك انتهز فرصة وجوده في بيت صديقه أبي الوفاء، وبين رفوف كتبه القيّمة، فأخرج تلك المختارات المتعددة، وفي مقدّمتها ديوان الحماسة، ليبعث رسالة صامتة إلى من سلبه جهده، واتّهمه زوراً وبهتاناً، مفادها: هذا هو الشعر الذي تتّهمونني بسرقته أمام بصائركم، فقارنوه بشعري، لتعلموا أنني إنما أقول الشعر بفكري وجهدي، وليس اتكاءً على شعر غيري.

هذا ومما يعزّز احتمال ذلك الصدى لردّة الفعل عند أبي تمام، ما رُوي عن ملاحظة بعض المتابعين لشعره من أنه يُجهد نفسه، ويتّكئ على ذاته، من ذلك ما أخبر به المظفّر بن يحيى، قال: "نظر يعقوب الكندي في شعر أبي تمام، فقال: هذا رجلٌ يموت قبل حينه، لأنه حمل على كيانه بالفكر، قال: ويقال إن أبا تمام مات لنيّفٍ وثلاثين سنة". (المرزباني، 1965)

المفارقة السّاخرة المؤلمة التي عاشها أبو تمام، كانت بين ما يبذله من جهد فكري تحقيقاً للاستقلال الذاتي في شعره، وما يسمعه من تُهم تنسب ذلك الجهد إلى غيره، وقد كانت الفترة الزمنية بين الصدمة التي تلقّاها على باب عبدالله بن طاهر في خراسان، واختياره أشعار الحماسة في همذان قصيرة، وهذا يؤكد الأثر النفسي الذي تركته هذه الصدمة في نفسه، وظلّت حاضرةً في ذهنه عند اختياره أشعار حماسته.

ويحسن بنا أن نختم هذا الجانب من تتبّع النقاد لسرقات أبي تمام، بقول الصّولي: "ولو جاز أن يُصرَف عن أحد من الشعراء سرقةٌ، لوجب أن يُصرف عن أبي تمام لكثرة بديعه واختراعه، واتكائه على نفسه".(الصّولي، 1980).

أما القاعدة الثانية التي اعتمد عليها النقاد في موازنة شعر أبي تمام بشعر الحماسة، فتتعلّق بمذهبه الشّعري، وطريقته في نظم الشعر، فقال المرزوقي: "وأمّا تعجبك من أبي تمام في اختيار هذا المجموع، وخروجه عن ميدان شعره، ومفارقته ما يهواه لنفسه، وإجماع نقّاد الشعر بعده على ما صحبه من التوفيق في قصده، فالقول فيه أنّ أبا تمام كان يختار ما يختار لجودته لا غير، ويقول ما يقول من الشعر بشهوته، والفرق بين ما يُشتهى وبين ما يُستجاد ظاهر". (المرزوقي، 1991)

فالمرزوقي استطاع أن يلحظ الفرق بين اختيارات أبي تمام التي يستخدم فيها ملكة النقد والتذوق، وبين شعره الذي يكون نتاج شهوته وطبعه. وكان غير المرزوقي من النّقاد، قد التقطوا قوله هذا، وفهموه على أنه تفضيل لشعر الحماسة على شعر أبي تمام، فقالوا: "إن أبا تمام في اختياره الحماسة أشعر منه في شعره".(التبريزي، 1964) وقد يندرج في هذا ما رُوي على لسان كاتب الحسن بن رجاء، من أنه رأى في أبي تمام: "رجلاً عقله وعلمُه فوق شعره". (الأصفهاني، 1961)

وحقيقة الأمر أبعدُ من ذلك، وقد وقف عليها الصولي فقال: " وكان أبو تمام يُبصر الشعر كلّه وينقده، ويفضّل الجيد منه وإن كان على غير مذهبه".(الصّولي، 1980) وتلك ميزة جديدة لأبي تمام يردُّ بها على النّقاد المُرذلين لشعره، ويظهر من خلالها قدرته على تذوق الشعر الجميل والإعجاب به، وإن كان خلافَ طبعه وعلى غير مذهبه، وهذا ما حققه فعلاً، فقد أثبت عن طريق الحماسة قدرة فائقة على الانتخاب. يقول المرزوقي: "وهذا الرجل لم يعمد من الشعراء إلى المشتهرين منهم دون الأغفال، ولا من الشعر إلى المتردّد في الأفواه، المجيب لكل داع ... بل اعتسف في

دواوين الشعراء جاهليّهم ومخضرمهم، وإسلاميّهم ومولّدهم، واختطف منها الأرواح دون الأشباح، واخترف[2] الأثمار دون الأكمام، وجمع ما يوافق نظمه ويخالفه. لأن ضروب الاختيار لم تخفَ عليه، وطُرق الإحسان والاستحسان لم تستتر عنه". (المرزوقي، 1991)

عمله كان رسالة صامتة لكنّها بليغة، وقد لجأ إليها لا من أجل أن يسلب خصومه سلاحهم فحسب، وإنما من أجل أن يُظهر تفوّقه عليهم، ومعرفته بشعر الأوّلين، فأبو تمام كان أوّل شاعر يلجأ إلى مثل هذا الاختيار، ويتجاوز مهمّته لاختراق مهمّة خصومه، فلو لم تكن له غاية مرتبطة بفنّه ومذهبه، وطريقته لمَا لجأ إلى ذلك، ولمَا اجتهد في أن يأتي عمله هذا متفوّقاً على أعمال غيره فيه. فكلّنا يعلم أن حماسة أبي تمام سجّلت نجاحاً لم يتمتّ لاختيار آخر مماثل.

ولهذا كان تأثيرها فيمن جاؤوا بعده كبيراً، فقد أُلفت بعدها كتبٌ في المختارات استعارت اسمها مثل: حماسة البحتري، وحماسة الخالديين، وحماسة العسكري، وحماسة ابن الشّجري، وحماسة الحلّي، وحماسة الظرفاء، والحماسة البصرية. واهتمّ بشرحها الشرّاح أكثر من غيرها مثل: العسكري، وابن جنّي، والمرزوقي، والصّولي، والشنتمري، والتبريزي، والعكبري، وغيرهم (خليفة، د.ت).

وعلى أيّة حالٍ، ستظلّ حماسة أبي تمام تلهم الدّارسين للوقوف عند أشعارها وقفاتٍ تُبرز ما فيها من قيمٍ وجمال، كما فعلت في شرّاحها القدماء. لكن ما تحتاج إليه مع كل ذلك الموازنة الشاملة بين ما فيها، وما في شعر أبي تمام من قيم، فأشعار الحماسة بلا ريب قد أثارت كوامن النفس لدى أبي تمام، لا من جهة فنّها فحسب، ولكن من جهة القيم المعنوية والإنسانية التي فيها. وهذا جانب مكمّل ومتكامل مع الجانب الفنّي الجميل فيها. بل إنني أعتقد أن الجمالَين معاً، جمال الفن وجمال

---

[2] الاخترافُ: اجتناء الثمر.

المثل الإنسانية العليا، قد منحا الحماسة وشعر أبي تمام معاً، تقديراً لا يمكن أنْ يُكفر، كما لا يمكن أن يتوقف أو ينتهي مع الأيام.

المصادر والمراجع

الأصبهاني الراغب، 1287هـ- **محاضرات الأدباء**. طبعة إبراهيم المويلحي، القاهرة، 302 صفحة.

الأصفهاني أبو الفرج، 1961- **الأغاني**. تحقيق مصطفى السقا. دار الكتب المصرية، القاهرة، الجزء السادس عشر، 552 صفحة.

الأعرجي محمد حسين، 1978- **الصراع بين القديم والجديد في الشعر العربي**. وزارة الثقافة، بغداد، 250 صفحة.

الآمدي أبو القاسم، 1972- **الموازنة بين أبي تمام والبحتري**. تحقيق السيد أحمد صقر(الجزء الأول والثاني). الطبعة الثانية، دار المعارف، مصر، 589 صفحة.

التبريزي الخطيب، 1964- **شرح ديوان أبي تمام**. تحقيق محمد عبده عزام. دار المعارف، مصر، 488 صفحة.

التبريزي الخطيب، 1296هـ- **شرح ديوان الحماسة**. عناية الشيخ محمد قاسم. طبعة بولاق، مصر، 808 صفحات.

الجرجاني القاضي، 2006- **الوساطة بين المتنبي وخصومه**. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، وعلي محمد البجاوي. الطبعة الأولى، المكتبة العصرية، بيروت، 400 صفحة.

خليفة حاجي، د.ت- **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**. دار إحياء التراث العربي، بيروت، 555 صفحة.

السامرائي إبراهيم، 1980- **لغة الشعر بين جيلين**. الطبعة الثانية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 243 صفحة.

الصُّولي أبو بكر، 1980- **أخبار أبي تمّام**. تحقيق خليل محمود عساكر، ومحمد عبده عزام، ونظير الإسلام الهندي. الطبعة الثالثة، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 306 صفحات.

ضيف شوقي، 1965- **البلاغة تطور وتاريخ**. دار المعارف، مصر، 388 صفحة.

المرزباني أبو عبيد الله، 1965- **الموشّح في مآخذ العلماء على الشعراء**. تحقيق علي محمد البجاوي. دار نهضة مصر، القاهرة، 636 صفحة.

المرزوقي أبو علي، 1991- **شرح ديوان الحماسة**. تحقيق أحمد أمين، وعبد السلام هارون. الطبعة الأولى، دار الجيل، بيروت، 1041 صفحة.

المسعودي علي، 2005- **مروج الذهب ومعادن الجوهر**. تحقيق كمال حسن مرعي، الطبعة الأولى، المكتبة العصرية، بيروت، الجزء الرابع، 341 صفحة.

مندور محمد، 2007- **النقد المنهجي عند العرب**. دار نهضة مصر، القاهرة، 480 صفحة.

The Effects of the Arguments over Abu Tammam's choice of Al-Hamasah Poetry

Husain Al-Zoabi *, Samer Al-Kati'. **
*Dept. of Arabic., Faculty of Arts and Humanities, University of Damascus
**Postgraduate Student (DSc)

Abstract

This Study discusses The effects of The argument over The poetical method Abu Tammam applied in his **Al-Hamasah Book of Poems**, which was the First book based on some kind of classification. This book tackles the poetry of obscure poets.
This Study assures that this book of poem is an indirect reply directed to his rival critics.
The book reveals Abu Tammam's vast knowledge and skillful ability to select from poetry. More Avery it includes a variety of patterns of metaphors and musical devices that sound quite similar to those involved in Abu Tammam's own poetry.

Key words: Arguments, Al-Hamasah Poetry.